

(٢)

" آداب قرآنية لتعميق الأخوة الإيمانية "

الآيات (٦ - ١٣)

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ
 مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ
 اللَّهُ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ
 الرَّاشِدُونَ ﴿١٠٧﴾ فَضَلَّ اللَّهُ مِنَّا وَنِعْمَةً ءَلَلَهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿١٠٨﴾ وَإِن طَافَيْتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
 أَقْتَلْتُمَا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغْتِ إِحَدُهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ
 اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
 إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ
 مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ
 وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١١﴾
 يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ
 بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ
 ﴿١١٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ
 عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١١٣﴾

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَبُوا
 عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ
 أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٦٧﴾ فَضَلَّامِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ءَلِلَّهِ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿٦٨﴾

إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ : فَسَقَ خَرَجَ عَنِ حَجَرِ الشَّرْعِ وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ : فَسَقَ الرَّطْبُ
 إِذَا خَرَجَ عَنِ قَشْرِهِ . وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْكُفْرِ . وَالْفِسْقُ يَقَعُ بِالْقَلِيلِ مِنَ الذَّنُوبِ وَبِالكَثِيرِ ،
 لَكِنْ تَعُورَفُ فِيمَا كَانَ كَثِيرًا . وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ الْفَاسِقُ لِمَنْ التَّزَمَ حُكْمَ الشَّرْعِ وَأَقْرَبَ بِهِ ثُمَّ
 أَخْلَىٰ بِجَمِيعِ أَحْكَامِهِ أَوْ بِيَعْضِهِ (١) ، فَسَقَ يَفْسُقُ وَيَفْسُقُ فِسْقًا وَفُسُوقًا . وَأَصْلُ الْفَسْقِ
 الْخُرُوجُ عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالْجَوْرِ (٢) .

أَنْ تُصِيبُوا : الْمَصْدَرُ الْمَوْوَلُ : ﴿ أَنْ تُصِيبُوا ﴾ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ مَفْعُولٌ لِأَجَلِهِ بِحَذْفِ
 مُضَافٍ أَيْ خَشِيَّةٍ أَنْ تُصِيبُوا (٣) .

بِجَهَالَةٍ : الْجَهْلُ : نَقِيضُ الْعِلْمِ . وَقَدْ جَهَلَهُ فَلَانٌ جَهْلًا وَجَهَالَةً (٤) وَالْجَهْلُ عَلَى
 ثَلَاثَةٍ أَضْرَبَ . الْأَوَّلُ : وَهُوَ خُلُوُّ النَّفْسِ مِنَ الْعِلْمِ ، هَذَا هُوَ الْأَصْلُ . وَالثَّانِي : اعْتِقَادُ
 الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ . وَالثَّلَاثُ : فَعَلَ الشَّيْءَ بِخِلَافِ مَا حَقَّهُ أَنْ يُفْعَلَ ، سِوَاءِ اعْتِقَادِ
 فِيهِ اعْتِقَادًا صَحِيحًا أَوْ فَاسِدًا . قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ ﴾ (٥) .

(١) مفردات الرَّاغب الأصفهاني : " فسق " ٢ / ٤٩١

(٢) لسان العرب : " فسق "

(٣) الجدول في إعراب القرآن و صرفه ١٢ / ٩٥ و الجلالين

(٤) لسان العرب : " جهل "

(٥) مفردات الرَّاغب الأصفهاني : " جهل " ١ / ١٣٢

لعنتم : لنا لكم عنتم، يعنى الشدة والمشقة في كثير من الأمور بطاعته إياكم لو أطاعكم^(١).

والعصيان : ركوب ما نهى الله عنه في خلاف أمر رسول الله ﷺ وتضييع ما أمر الله به^(٢).

أولئك هم الرّاشدون : السّالكون طريق الحق^(٣).

سبب النّزول

نزلت الآيات الكريمة في الوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق من خزاعة^(٤) بعد إسلامهم ليأخذ الزكاة منهم. فلما سمعوا به ركبوا إليه. فلما سمع بهم هاجم لعداوة كانت بينه وبينهم في الجاهلية. فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أنّ القوم قد همّوا بقتله ومنعوه ما قبلهم من صدقتهم. فأكثر المسلمون في ذكر غزوهم، حتّى همّ رسول الله ﷺ بأن يغزوهم. فبينما هم على ذلك قدم وفدهم على رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله، سمعنا برسولك حين بعثته إلينا فخرجنا إليه لنكرمه ونؤدّي إليه ما قبلنا من الصدقة، فانشمر^(٥) راجعاً. فبلغنا أنّه زعم لرسول الله ﷺ أنا خرجنا إليه لنقتله . والله ما جئنا لذلك. فأنزل الله تعالى فيه و فيهم الآيات الكريمة^(٦).

(١) تفسر الطبري ٢٦ / ٨٠ //

(٢) تفسير الطبري ٢٦ / ٨٠

(٣) تفسير الطبري ٢٦ / ٨٠

(٤) السيرة النبوية ٣ / ٣٠٢ وكانت غزوة بني المصطلق في شعبان سنة ست .

(٥) فانشمر : فجذ وأسرع

(٦) انظر السيرة النبوية ٣ / ٣٠٨ وتفسير الطبري ٢٦ / ٧٨ و ٧٩ وتفسير ابن كثير ٧ / ٣٥٠ - ٣٥٢ و

الجلالين والكشاف ٣ / ١٤٨ ، و أسباب النّزول ٤٥٠

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله إن جاءكم فاسقٌ خارج عن طريق الاستقامة نبياً
و خيراً مهمّاً جديد فتبينوا حقيقة الأمر ، خشية أن تصيبوا قوماً بجهالة ، وأن توصلوا
إليهم الأذى معتقدين أنّكم على صواب، فتصبحوا بعد أن تتبينوا كذب الفاسق نادمين
على ما اجترحت أيديكم ونالت من الأبرياء. واعلموا أيها المؤمنون أنّ فيكم رسول
الله تعالى الموحى إليه من ربّ العالمين، لو يطيع بعضكم في كثير من الأمور التي
تستعجلون اتخاذ القرار بشأنها، وتنفيذها في دنيا الواقع، لوقعتم في المشقة و الهلاك.
ولكنّ الله سبحانه وتعالى حبّب إلى البعض الآخر منكم مجموعة من النعوت، فالحقوا
بهم وكونوا جزءاً منهم^(١)، وهكذا يكون الحقّ جلّ وعلا قد حبّب إليكم جميعاً الإيمان
وزينة في قلوبكم، وكرّه إليكم الكفر والإشراك بالله تعالى، والفسوق والخروج عن
طريق الاستقامة، والمعاصي وارتكاب الذنوب. إنّ أولئك هم الرّاشدون السّالكون
الطّريق القويم الموصل إلى جنّات النّعيم. كونوا أيها المؤمنون جميعاً من الرّاشدين الذين
تلك نعوتهم، وليتخلّ ذلك الفريق عن الصّفة المرغوب عنها فلا يتقدّم بين يدي الرّسول
صلّى الله عليه وسلّم بقولٍ أو فعل.

لقد أكرم الله تعالى المؤمنين الذين صاروا صفّاً واحداً بتلك المجموعة من النّعوت،
فضلاً منه عزّ وجلّ ونعمة . والله تعالى علیم لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض و لا في
السّماء ، حكيمٌ في قوله وفعله وشرعه وقدره وفي كلّ شيءٍ سبحانه.

(١) انظر الكشف ٣ / ١٤٩ و ١٥٠

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٦٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦١﴾

وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا : وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا^(١) فسمّاهم مؤمنين مع الاقتتال^(٢).

فأصلحوا بينهما : فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله والرّضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل^(٣)، إمّا القصاص والقوّد، وإمّا العقل^(٤) والعير، وإمّا العفو^(٥).

فإن بغت إحداهما على الأخرى : فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله له وعليه، وتعدّت ما جعل الله عدلاً بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما^(٦) والبغي : تجاوز الحقّ إلى الباطل^(٧).

حتّى تفيء إلى أمر الله: حتّى ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه^(٨).

وأقسطوا : أقسطَ يُقسطُ فهو مُقسِطٌ إذا عدل .

(١) تفسير الطبري ٢٦ / ٨٠ وانظر في سبب النزول صحيح مسلم ٣ / ١٤٢٤ حديث رقم ١٧٩٩

(٢) تفسير ابن كثير ٧ / ٣٥٣

(٣) تفسير الطبري ٢٦ / ٨٠

(٤) العقل الذبّة وكانت إبلا تُعقل في فناء الورثة .

(٥) تفسير الطبري ٢٦ / ٨٢

(٦) تفسير الطبري ٢٦ / ٨٠

(٧) مفردات الراغب الأصفهاني : " بغي " ١ / ٧١

(٨) تفسير الطبري ٢٦ / ٨٠

والقِسْطُ : العدل والقسطاس المستقيم : أقوم الموازين (١).

إنما المؤمنون إخوة : في الدين (٢).

وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما أيها المؤمنون بالدعاء إلى حكم الله تعالى والرضا بذلك الحكم، لهما أو عليهما. فإن بغت إحدى الطائفتين على الأخرى، ورفضت حكم الله تعالى، وأصرّت على الظلم والاعتداء، فقاتلوا أيها المؤمنون الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله تعالى، وتدعن لذلك الحكم وترضى به فإن رجعت تلك الفئة إلى الحق، وقبلت حكم الله تعالى، فأصلحوا بين الفئتين بالعدل، وتحرّوا أعلى درجات الإنصاف والقِسْط. إن الله تعالى يحبّ المسلمين الذين يحكمون بالقسطاس المستقيم، والميزان القويم، ويطبّقون حكم الله تعالى.

إنما المؤمنون إخوة في الدين، فأصلحوا أيها المؤمنون بين أخويكم المؤمنين المتخاصمين. واتقوا الله تعالى وخافوه واحشوه واحكموا بما أنزل الله تعالى، ولا تأخذكم في الحق لومة لائم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّسَانِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٦﴾

يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم : لا يسخر رجالٌ مؤمنون من رجال

(١) لسان العرب : " قسط "

(٢) تفسير الطبري ٢٦ / ٨٢

مؤمنين^(١)، والقوم جماعة الرجال في الأصل دون النساء^(٢) والسخرية:
الاحتقار والاستهزاء والاستصغار^(٣) والازدراء^(٤).

عسى أن يكونوا خيراً منهم : قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله وأحب إليه من
السّاحر منه المحتقر له^(٥).

ولا تلمزوا أنفسكم : اللّمز الاغتياب و تتبّع المعاب. أي لا تلمزوا الناس
فيلمزونكم فتكونوا في حكم من لمز نفسه^(٦). عن قتادة: لا يطعن بعضكم على بعض^(٧).
ولا تنابزوا بالألقاب : لا تتداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها^(٨).

بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان : ومن فعل ما هئنا عنه، وتقدّم على معصيتنا بعد
إيمانه فيسخر من المؤمنين، ولمز أخاه المؤمن، ونبزه بالألقاب فهو فاسق ، فلا تفعلوا
فتستحقّوا إن فعلتموه أن تُسمّوا فساقاً^(٩).

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا يسخر رجالاً مؤمنون من رجال مؤمنين، ولا
يستهزئوا بهم ولا يحتقروهم، عسى أن يكونوا خيراً منهم عند الله تعالى، وأفضل وأرفع
مترلة، ولا يسخر نساءً مؤمنات من نساء مؤمنات، عسى أن يكنّ خيراً منهنّ عند الله
تعالى وأفضل وأرفع مترلة. ولا يعب بعضكم بعضاً، ولا يتتبع عورته، لأنّ المؤمن أخو

(١) تفسير ابن كثير ٧ / ٣٥٦ و الجلالين

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني : " قدم " ٢ / ٥٤١

(٣) تفسير ابن كثير ٧ / ٣٥٦

(٤) الجلالين

(٥) تفسير ابن كثير ٧ / ٣٥٦

(٦) مفردات الراغب الأصفهاني : " لمز " ٢ / ٥٨٥

(٧) تفسير الطبري ٢٦ / ٨٣

(٨) تفسير ابن كثير ٧ / ٣٥٦

(٩) تفسير الطبري ٢٦ / ٨٥

المؤمن، ولأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، فكأنّ العائب إنّما يعيب نفسه، وكأنّه يتبع عورة نفسه. هذا إلى أنّه بفعله المقيت يشجّع أخاه المؤمن على أن يتتبع عيبه، ويتقصّى عورته. ولهذا جاء في الآية الكريمة النهي عن لزم الإنسان نفسه لأنه يشجّع الآخرين على أن يعاملوه بالمثل.

وتنهي الآية الكريمة المؤمن كذلك عن أن يدعو أخاه المؤمن باللقب الذي يكرهه، وعليه في المقابل أن يدعوه بأحبّ الأسماء والألقاب إليه.

إنّ من يرتكب تلك المنهيات يستحقّ أن يلقب بالفاسق بعد أن كان يلقب بالمؤمن، ويستحقّ صفة الفسوق بعد الإيمان. وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، وساءت صفة الفسوق بعد صفة الإيمان. أترضون أيّها المؤمنون أن تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!

إنّ الذين لم يتوبوا عن السّخريّة وعيب الآخرين وندائهم بالألقاب التي يكرهون فأولئك هم الظالمون الذين ظلموا الآخرين بالاعتداء إليهم، وظلموا أنفسهم بارتكاب الذنوب وإتيان المعاصي .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾

ولا تجسسوا : أي على بعضكم بعضاً. والتجسس غالباً يطلق في الشرّ. ومنه الجاسوس. وأمّا التجسس فيكون غالباً في الخير، كما قال تعالى إخباراً عن يعقوب أنّه قال (١) : ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِعْسُوا مِن رُّوحِ اللَّهِ﴾ (٢) يقول :

(١) سورة يوسف ٨٧

(٢) تفسير ابن كثير ٧ / ٣٥٨

ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره يتغني. بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقموا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا أو ذموا لا على ما لا تعلمونه من سرائره^(١).

ولا يغتب بعضكم بعضاً : عن أبي هريرة أنه قيل : يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: ذكر أخاك بما يكره. قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته^(٢).

أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه : أوجب أحدكم أيها القوم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته ميتاً ؟ فإن لم تحبوا ذلك وكرهتموه لأن الله حرم ذلك عليكم، فكذلك لا تحبوا أن تغتابوه في حياته، فاكرهوا غيبته حياً مما كرهتم لحمه ميتاً، فإن الله حرم غيبته حياً كما حرم أكل لحمه ميتاً^(٣). أي كما تكرهون هذا طبعاً فاكرهوا ذلك شرعاً، فإن عقوبته أشد من هذا^(٤).

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله اجتنبوا كثيراً من ظن السوء بإخوانكم المؤمنين. إن بعض الظن إثم عظيم وذنوب كبير. ولا تجسسوا فلا تبحثوا عن عيوب أخيك، ولا تفتشوا عن سرائره، واكتفوا بما ظهر لكم من أمر أخيك، واحكموا عليه بذلك الظاهر، وكلوا السرائر إلى الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى. ولا يغتب بعضكم بعضاً، بأن يذكر أخاه المؤمن بما يكره، وتلك هي الغيبة. أما إذا ذكره بما ليس فيه من عيب فذلك هو البهتان العظيم. أوجب أحدكم أيها المؤمنون أن يأكل لحم أخيه الميت؟ لا . إنكم جميعاً تكرهون أكل لحم أخيك الميت حساً، فكذلك اكرهوا أكل لحم

(١) تفسير الطبري ٢٦ / ٨٥

(٢) سنن أبي داود ٤ / ٢٦٩ حديث رقم ٤٨٧٤

(٣) تفسير الطبري ٢٦ / ٨٧

(٤) تفسير ابن كثير ٧ / ٣٦٠

أخيكم الحيّ معنيّ، وذلك باغتيابه. إنّ أكل لحم الميتّ مكروهٌ طبعاً، وإنّ أكل لحم الحيّ باغتيابه مكروهٌ شرعاً. فأنأوا عن الغيبة كما تنأون عن أكل الجيفة، وهي جثة الميت إذا أنتت.

واتقوا الله تعالى أيّها المؤمنون بفعل ما أمرتم به، واجتناب ما نهيتم عنه، وتوبوا إلى الله تعالى الذي يقبل التوبة عن عباده ويغفرهم برحمته.
عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: إياكم و الظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث. ولا تحسسوا ولا تجسسوا، ولا تناجشوا^(١) ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً^(٢).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

يا أيّها الناس إنّنا خلقناكم أجمعين من ذكر وأنثى هما أبواكم آدم وحواء عليهما السلام، وقد بثّ الله تعالى منهما رجالاً كثيراً ونساءً، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتتعارفوا وتتواصلوا، لا لتتناكروا وتتقاطعوا. وإنّ من آيات الله تعالى الدالّة على قدرته، والمعتمّة للتعارف والتواصل والتآلف واختلاف الألسنة والألوان والأشكال وما إلى ذلك. إنّ كلّ الخصائص الجثمانية بقصد التعارف لا التفاضل. فلا معنى لتفضيل دمٍ على دمٍ، ولا لونٍ على لونٍ، ولا شعبٍ على شعبٍ، ولا عرقٍ على عرقٍ، ولا قومٍ على قومٍ. إنّ الناس جميعاً عند الله تعالى سواء. وإنّ الأكرم عند الله تعالى هو الأتقى. وبقدر ارتقاء العبد المؤمن في مدارج الإسلام والإيمان والإحسان، تكون منزلته عند الله تعالى. وبقدر ابتعاد

(١) النجش: أن يزيد في السلعة وهو لا يريد شراءها ليقع غيره فيها.

(٢) فتح الباري ١٠ / ٤٨٤ حديث رقم ٦٠٦٦ و انظر صحيح مسلم ٤ / ١٩٨٣ حديث رقم ٢٥٥٩

العبد عن الله تعالى، يكون درك انحطاطه عند الله تعالى ، إنّ الله تعالى هو العليم الذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ولا يخفى عليه حقيقة التّقيّ والشّقيّ، البرّ والفاجر، وهو الخبير الذي يعلم بواطن الأمور كما يعلم ظواهرها.

(٣)

"المؤمنون صادقوا الإيمان هم الذين آمنوا بالله
تعالى وبرسوله وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم
وأَنْفُسهم"

الآيات (١٤ - ١٨)

﴿١٥﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

﴿٢١﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾

قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا : لأن القوم كانوا صدقوا بألسنتهم ولم يصدقوا قولهم بفعالهم فقبل لهم قولوا أسلمنا، لأن الإسلام قول، والإيمان قول وعمل^(١).
 لا يلتكم من أعمالكم شيئا : لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئا ولا ينقصكم من ثوابها شيئا^(٢).

الأعراب هم الذين يسكنون الأماكن النائية شبة المنعزلة، البعيدة عن المدن وعن الجماعات الآخذة بقسط من الحضارة والاختلاط بالآخرين. وهؤلاء فيهم الفظاظ على نحو وفد تميم الذين جاؤوا في وقت الهجرة، وتفرقوا حول حجرات النبي ﷺ ينادونه في

(١) تفسير الطبري ٢٦ / ٨٩

(٢) تفسير الطبري ٢٦ / ٩٠

ذلك الوقت الذي يرتاح الناس فيه عادة ، ويدعون من وراء كل الحجرات ، لأنهم لا يعلمون الحجرة التي هو فيها من أجل أن يفاخروه نثراً وشعراً ! لقد دعا النبي ﷺ في ذلك الوقت خطيبه ثابت بن قيس الشّمس، وشاعره حسّان بن ثابت كي يردّ كلّ منهما على خطيب القوم وشاعرهم. ثمّ أعلن القوم إسلامهم. والسّورة الكريمة سمّيت سورة الحجرات من أجل نداء الوفد النّبويّ ﷺ من وراء الحجرات؛ في ذلك الوقت غير المناسب ووصفت السّورة الكريمة أكثر القوم بأنهم لا يعقلون^(١).

والقسم الأخير من السّورة الكريمة يتحدّث عن فريقٍ آخر من الأعراب، تحدّث على سبيل المنّ على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ بأنه بلغ مرتبة الإيمان، والحقيقة أنّه لم يبلغها بعد. ويقال إنّ هؤلاء هم أعراب بني أسد بن خزّيمة^(٢) الذين امتنّوا بإسلامهم على نبيّ الله ﷺ فقالوا: أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان^(٣).

تقول الآية الكريمة، إنّ هذه الجماعة من الأعراب قالت على سبيل المنّ والفخر: آمنا. قل لهم يا محمّد : لم تؤمنوا ولم تبلغوا مرتبة الإيمان ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم. ومعنى الإسلام في الآية الكريمة هنا إعلان الدخول في الإسلام باللسان والنطق بالشهادتين. ودرجة الإيمان أرفع من درجة الإسلام، ودرجة الإحسان أرفع منهما بنصّ الحديث النّبويّ الشّريف الذي عرف كلاً من الإسلام والإيمان والإحسان^(٤) إنّ المطلوب من هؤلاء أن يطبقوا عملياً أركان الإسلام، وأركان الإيمان التي يتداخل بعضها مع أركان الإيمان، وركن الإحسان الواحد كما عرفه النبيّ ﷺ بأن

(١) انظر - مثلاً - السيرة النبوية ٤ / ٢٠٦ - ٢١٣

(٢) انظر مثلاً تفسير الطبري ٢٦ / ٨٩

(٣) تفسير الطبري ٢٦ / ٩٠

(٤) انظر - مثلاً - صحيح مسلم ١ / ٣٧ حديث رقم ٨

تعبد الله تعالى كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. ومرتبة الإحسان هذه تكاد تكون الوجه الآخر للتقوى.

وتبين الآية الكريمة لهذا الفريق من الأعراب ولكل المؤمنين بأنهم إن يطيعوا الله تعالى ويطيعوا رسوله ﷺ، لا ينقصهم الله تعالى شيئاً من ثواب أعمالهم. وتبشّر الآية الكريمة في التذليل بأن الله تعالى غفورٌ ذنبٍ من استغفره، رحيمٌ أن يعذب من تاب توبةً نصوحاً وقبل عزّ وجلّ توبته.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾

إنّ المؤمنين حقاً هم أولئك الذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ، ثم لم يتطرق إليهم أدنى شكّ في وحدانيّة الله تعالى، وفي رسالة محمد ﷺ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى، فبدلوا كلّ نفسٍ ونفيسٍ بقلوبٍ مؤمنةٍ مطمئنّةٍ ابتغاء مرضاة الله تعالى وحده لا شريك له. إنّ الذين تلك نعوّتهم هم الصادقون في ادّعاء الإيمان وهم الموصفون به على الحقيقة.

﴿ قُلْ أَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قل يا محمد لأولئك الأعراب الذين قالوا إنهم آمنوا من دون أن يقدموا الدليل العملي على حقيقة إيمانهم، ومن هذه الأدلة الجهاد في سبيل الله تعالى بالأموال والأنفس: أتعلمون أيها القوم الله تعالى بدينكم، وبحقيقة إيمانكم، وبمقدار استقرار الاطمئنان في نفوسكم، واليقين في قلوبكم. إن الله تعالى هو الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، والذي يعلم ما توسوس به نفس المرء بين جنبيه، والذي يعلم كل شيء. إن الحق جلّ وعلا الذي أحاط بكل شيء علماً هو الذي يقول لكم: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فتدبروا أمركم أيها الأعراب قبل فوات الأوان.

﴿ يَمْشُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

يمنّ عليك أيها الرسول الكريم والنبي العظيم أولئك الأعراب بأن أسلموا دون قتال، خلافاً لغيرهم من قبائل العرب الذين أسلموا بعد قتال. قل لهم يا محمد: لا تمنوا عليّ بإسلامكم، بل الله تعالى هو الذي يمنّ عليكم بأن هداكم إلى الإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ، وباعتناق دين الإسلام، إن كنتم صادقين في ادّعاءكم الإيمان، الذي ينبغي عليكم الاجتهاد في سبيل الارتقاء إلى مستواه الرفيع.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

إنَّ الله تعالى يعلم ما غاب في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فكيف بما ظهر. والله سبحانه
وتعالى بصير بما تعملون أيها النَّاس وإدراك، ليلاً ونهاراً، سرّاً وجرهاً، وسيجازيكم على
أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

التعقيب

- نود أن نشير في هيئة نقاط إلى بعض الأمور المتعلقة بالسورة الكريمة :
- ١ - سورة الحجرات من المدني من القرآن الكريم الذي نزل على المصطفى ﷺ بعد الهجرة^(١).
 - ٢ - عدد آيات السورة الكريمة ثمان عشرة آية، وعدد كلماتها ثلاثمائة وأربعون كلمة، وعدد حروفها ألف وأربعمائة وستة وسبعون حرفاً^(٢).
 - ٣ - سميت السورة الكريمة سورة الحجرات لقول الحق جلّ وعلا خطاباً للنبي ﷺ في الآية الكريمة الرابعة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.
 - ٤ - محور السورة الكريمة النعوت التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمنون في جنب الله تعالى، وفي حقّ المصطفى ﷺ، وفي حقّ إخوانهم في الدين، وفي حقّ الإنسانية، وذلك بتحليلهم بنعوت صادقي الإيمان، من إيمان صادق بالله تعالى وبرسوله ﷺ وجهاد في سبيل الله تعالى بالأموال و الأنفس حتى يظهر دين الإسلام على الدين كلّه، وحتى تتحقق الأخوة الإيمانية إضافةً إلى الأخوة الإنسانية بين البشر.
 - ٥ - سورة الحجرات من أواخر ما نزل من القرآن الكريم من السور^(٣) ويتأكد هذا المعنى حينما نتبين تأريخ بعض الحوادث. لقد كان وفود أعراب وفد تميم على النبي

(١) انظر - مثلاً - الإتقان ١ / ٤٣ وتفسير ابن كثير ٧ / ٣٤٥ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان

٦٩/٢٦ و الجلالين ، والمحرر الوجيز لابن عطية ١٥ / ١٢٩ والكشاف ٣ / ١٤٣ والبحر المحيط ٨ / ١٠٣ وتفسير القرطبي ٧ / ٦١٢٠

(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٦ / ٦٩

(٣) الإتقان ١ / ٤٣

ﷺ الذين نادوه من وراء الحجرات سنة تسع^(٢)، والوليد ابن عقبة بن أبي معيط الذي جاء بالنبا الكاذب عن بني المصطلق كان بعد غزوة بني المصطلق التي كانت في شعبان سنة ست^(٣) وعبد الله بن أبي بن سلول شيخ المنافقين الذي كان طرفاً في القصة سبب نزول الحكم في الطائفتين من المؤمنين حينما تقتتلان، توفي سنة تسع^(٤)، هذا إلى وصف السورة الكريمة صادقي الإيمان، بأنهم الذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ ثم لم يرتابوا، ولم يشكوا، وجاهدوا في سبيل الله تعالى بأموالهم وأنفسهم المشركين كافة.

٦ - تُعنى سورة الحجرات الكريمة بتبيين الحقوق والواجبات، وقد ابتدأت بتبيين حق الله تعالى أولاً، وحق رسوله ﷺ ثانياً، وذلك حينما نمت الآية الكريمة الأولى عن التقدّم بين يدي الله تعالى وبين يدي رسوله ﷺ. والمراد الاستمسك بهدي كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١﴾ إن على المؤمنين أن تكون كل أقوالهم وأفعالهم تبعاً لهدي كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

٧ - بشأن حقوق المصطفى ﷺ في القسم الأول من السورة الكريمة قد اقترنت تلك الحقوق بوجوب خفض الصوت حين الكلام معه ﷺ، وحين إصغائه ﷺ لمن يكلمه. وإن الضابط للصوت؛ التقوى التي تملأ القلب. وإتما نادى الأعراب النبي ﷺ باسمه بطريقة فظة لأن أكثرهم لا يعقلون ما ينبغي له ﷺ من توقير وتبجيل. وقد جاء في الآيات الكريمات الثلاث، من الثانية إلى الرابعة، ذكرٌ للمرغوب عنه والمرغوب فيه من الأصوات في خطاب المؤمنين له ﷺ، بأكثر من

(٢) السيرة النبوية ٤ / ٢٠٥

(٣) السيرة النبوية ٣ / ٣٠٢

(٤) الإعلام ٤ / ٦٥

أي موضع آخر في القرآن الكريم جاء فيه ذكر الأصوات أو الكلام. قال تعالى :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ

عَظِيمٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم و أنتم لا تشعرون. إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر

عظيم. ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٤﴾ .

٨ - القسم الثاني في السورة الكريمة الذي يعمل على تقوية الأخوة الإيمانية؛ يبدأ بالأمر بالتثبت من كل نبا خشية أن يكون إنما جاء به فاسق خارج عن الصراط المستقيم. والنبا ضرب من الصوت الذي يتعامل مع الأذن أساساً. وقد عرفنا من سبب النزول أن الذي جاء بالنبا الكاذب هو الشخص الذي أرسله النبي ﷺ لأخذ الزكاة من إحدى القبائل فزعم الرسول أنهم ارتدوا، ومنعوا الزكاة وهموا بقتله، وكذب في كل قوله للنبي ﷺ إن القول الذي خاطب الفاسق به النبي ﷺ من جنس الأنواع من الأصوات المنهي عنها بحضرة النبي ﷺ. وهذا نوع من الرباط بين القسمين في السورة الكريمة.

٩ - حكم الله تعالى في القرآن الكريم بشأن الطائفتين من المؤمنين حينما تقتتلان يجيء

في الآيتين الكريمتين التاسعة والعاشرة من السورة الكريمة. قال تعالى : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠٥﴾

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠٦﴾ .

١٠ - بعد أن قرّرت السّورة الكريمة أنّ المؤمنين إخوة، حشدت مجموعة من الصّفات المرغوب عنها والتي ينبغي على المؤمنين أن يتخلّوا عنها، كي تتحقّق الأخوة الإيمانية بإذن الله تعالى. جاء في الآيتين الكريمتين الحادية عشرة والثانية عشرة قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِلَا لِقَابٍ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ .

ونحن حينما نتأمل هذه الصّفات المرغوب عنها نبيّن أنها تصدر من الإنسان بباعث الظلم، وأنّ كلاً منها ذنبٌ يستوجب التّوبة إلى الله تعالى من ارتكابه. وإلى الظلم واستيجاب التّوبة منه أوما القول : ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ والقول : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ .

١١ - إنّ الأكرم عند الله تعالى هو الأتقى. وخلق الله تعالى الناس جميعاً من ذكرٍ وأنثى، وهم سواء أمام الله تعالى، وسواء من ناحية أصل الخلقة، فلا فضل لشعبٍ على شعب، ولا قبيلةٍ على قبيلة، ولا لشخصٍ على شخص بسبب الجنس أو اللون أو اللّغة وما إلى ذلك. وإنّ نداء الناس جميعاً في آخر آيات هذا القسم الثاني خير موطنٍ للتحوّل إلى القسم التّالي والأخير في السّورة الكريمة الذي يهتمّ بهداية الناس جميعاً إلى دين الإسلام، ويبيّن أهمّ نعوت صادقي الإيمان الذين نيّطت " بهم هذه المهمّة. جاء في الآية الكريمة الثالثة عشرة القول : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ .

١٢ - نعوت صادقي الإيمان الذين نيطت بهم مهمة نشر هذا الدين في الخافقين، الإيمان بالله تعالى و برسوله ﷺ إيماناً راسخاً، والجهاد في سبيل الله تعالى بالأموال والأنفس. إن هذه هي نعوت الأمة المرشحة والمهيأة بإذن الله تعالى لأن تأخذ بأيدي الناس إلى الصراط المستقيم. وكان الحديث عن الأعراب الذين ادّعوا بلوغ مرتبة الإيمان ولما يبلغوا تلك المرتبة، المنطلق لذكر نعوت المؤمنين صادقي الإيمان. ولما كان الأعراب من وفد تميم هم الذين نادوا النبي ﷺ من وراء الحجرات على نحو ما تبين في القسم الأول، فإن الحديث عن الأعراب في القسمين من السورة الكريمة نوعٌ من الرباط بين المعاني في السورة الكريمة. ويُفهم من ذكر الإسلام في هذا القسم أنه نطقٌ باللسان. ويُفهم من ذكر الإيمان أنه اعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح. وبهذا تكون مرتبة الإيمان في السورة الكريمة أرفع من مرتبة الإسلام. وإنما تعمّدتنا النصّ على أن مرتبة الإيمان هنا أرفع من مرتبة الإسلام، لأن بين أركان المرتبتين تداخلاً، ولأنّ المسلم يظلّ يتقلّب في درجات الإسلام والإيمان حتى يصل إلى قمة الإسلام و الإيمان، وهي مرحلة الاستسلام للذات العلية. إن مرحلة الاستسلام هذه يطلق عليها لفظ الإسلام كذلك. وكأنّ لفظة الإسلام تمثّل أولى درجات الإسلام بإعلان الدخول في الإسلام وذلك بالنطق بالشهادتين، وتمثّل أعلى درجات الإيمان، درجة الإحسان. والله تعالى أعلم^(١).

١٣ - سبق أن تبين بين يدي الدراسة الترابط بين أقسام السورة الكريمة، فإن المعاني يأخذ بعضها بحجر بعض، وهكذا تبين وحدة السورة الكريمة من الوجهة العضوية. إنها بصفة عامّة تتحول من الفرد المسلم، إلى الأمة المسلمة، إلى الإنسانية جمعاء التي يراد لها أن تكون جزءاً لا يتجزأ من خير أمة أخرجت للناس.

(١) انظر - مثلاً - أجوبة على أسئلة للمؤلف ص ٤٨ تحت عنوان : المراتب الدينية في الإسلام

خامساً : سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ
الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَمْ دَامْنَا وَكُنَّا نَرَاكَ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا
تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا
وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَإِنَّا فِيهَا رَاسِيَ وَأُنْبِتْنَا فِيهَا
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ
نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحِينًا بِهِ بَلَدَةٌ مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾
وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾ أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ
بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ
نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ نِلَقَى الْمُتَلَقِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ
عَيْدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ
ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ
نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ
فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْدٍ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ

كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ
بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ
وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْبَعِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾
وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ
خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ
﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ
مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ
كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا
يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ
الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾
يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَإِنَّا
الْمُصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا لَيْسِيرٌ ﴿٤٤﴾
نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

بين يدي التّفسير

(١)

"كفار مكة المنكرون للبعث في حال اضطراب بشأن القرآن الكريم والرّسول العظيم صلى الله عليه وسلّم"

الآيات (١ - ٥)

تبدأ سورة "ق" المكيّة الكريمة بأحد الحروف المقطّعة، وقد سمّيت السّورة الكريمة به. وجرّياً على عادة السّور الكريمة التي تبدأ بالحروف المقطّعة في الانتصار للقرآن الكريم تنتصر السّورة الكريمة للقرآن الكريم على الفور، وعلى التراخي. يجيء الانتصار للقرآن الكريم على الفور في الآية الكريمة الأولى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إن الحقّ جلّ وعلا يقسم بالقرآن الكريم المتضمّن للكثير من المكارم الدنيويّة والأخرويّة. وجواب القسم محذوف تقديره: ما آمن كفّار مكة بمحمد ﷺ، بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم يدعوهم إلى الإيمان بالبعث، فقال الكافرون هذا البعث الذي يدعوننا محمّد إلى الإيمان به، والعمل من أجله، شيءٌ عجيبٌ لا نعرف له سبباً، ولا نجد له موجبا. أئذا متنا وكنا تراباً نرجع أحياء! ذلك رجوعٌ غايةٌ في البعد والاستحالة. ولماذا لا يؤمن كفّار مكة بالبعث وقد علمنا ما تأكل الأرض من أجسادهم بعد الموت ونحن قادرون على إعادة الخلق كما بدأناه أوّل مرّة، وعندنا كتابٌ يحفظ أعمالهم ولا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها لنجازيهم عليها. الحقيقة إنهم كذبوا بالقرآن الكريم لما جاءهم عن طريق محمّد ﷺ، فهم بشأن القرآن الكريم ومحمّد بن عبد الله ﷺ في أمر مريب، وحالٍ غير مستقرّ، وتحولٍ مستمرّ من وصفٍ غير لائقٍ لكلّ منهما إلى وصفٍ آخر غير لائقٍ ذي علاقةٍ بالشّعْر والكذب وما إلى ذلك.

(٢)

" هَلَّا اسْتَدَلَّ كَفَّارُ مَكَّةَ عَلَى الْبَعْثِ بِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْأَكْبَرِ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَهَلَّا اتَّعَظُوا
بِإِهْلَاكِ اللَّهِ تَعَالَى الْمَكْذِبِينَ السَّابِقِينَ "

الآيَات (٦ - ١٥)

لَمَّا كَانَ كَفَّارُ مَكَّةَ الَّذِينَ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ، يَعْتَرِفُونَ كَذَلِكَ
بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْأَكْبَرِ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، فَإِنَّ السِّيَاقَ
يَتَحَوَّلُ إِلَى الْحَدِيثِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ كَيْ يَسْتَدَلَّ الْكَافِرُونَ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ
عَلَى الْخَلْقِ الْآخِرِ وَ الْبَعْثِ. أَعْمِيَ كَفَّارُ مَكَّةَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ
بَنَيْنَاهَا مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ وَزَيْنَاهَا بِالتَّجْوُمِ وَالْكَوْكَبِ وَمَالَهَا مِنْ صِدْوَعٍ تَعْيِيهَا. وَالْأَرْضَ
بَسَطْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا جِبَالاً رَاسِخَاتٍ لَتَرْسِيَةِ الْأَرْضِ وَمَنْعَهَا مِنَ الْاضْطِرَابِ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا
مِنْ كُلِّ نَوْعٍ يَمَلَأُ الْعَيْنَ لَذَّةً ، وَالنَّفْسَ بَهْجَةً . فَعَلْنَا ذَلِكَ تَبْصِرَةً لِلْخَلْقِ بَعْضُهُمْ قَدْرَتَنَا،
وَعِظَةً لِكُلِّ عَبْدٍ رَاجِعٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِعَمَلِ الْحَسَنَاتِ. وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَبَارَكاً
فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، وَأَنْوَاعَ الزَّرْعِ الْمَحْصُودِ مِنَ الْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَالذَّرَّةِ وَالْأَرْزِ
وَمَا إِلَى ذَلِكَ. وَأَنْبَتْنَا النَّخْلَ طَوَالاً، لَهَا طَلْعٌ مُتْرَاكِبٌ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فِي نِظَامٍ وَاتِّسَاقٍ.
أَنْبَتْنَا كُلَّ ذَلِكَ رِزْقاً لِلْعِبَادِ كَيْ يَقُومُوا بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِإِفْرَادِهِ عِزّاً
وَجَلّاً بِالْعِبَادَةِ. وَأَحْيَيْنَا بِذَلِكَ الْمَاءِ الْمَبَارَكِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ أَرْضاً كَانَتْ مَيِّتاً بِالْجُدْبِ،
فَأَنْبَتْنَا مِنْ كُلِّ نَوْعٍ تَرْتَاحُ لَهُ الْعَيْنُ وَتَبْتَهَجُ النَّفْسُ. وَكَمَا تَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا يَحْيِي
اللَّهُ تَعَالَى الْمَوْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ وَالْجِزَاءِ. هَلَّا اسْتَدَلَّ كَفَّارُ مَكَّةَ عَلَى الْبَعْثِ بَعْدَ

الموت بخلق الله تعالى أوّل مرّة السّماوات والأرض الأكبر من خلق النّاس! أم أنّ كفّار مكّة مفتونون بقوّتهم التي أعمتهم عن معرفة حقيقة أقدارهم فقالوا بلسان المقال أو الحال : لا أحد أشدّ منّا قوّة، واستعجلوا العذاب على سبيل الاستهزاء. إنّ كفّار مكّة ليسوا أشدّ قوّة من المكذّبين السّابقين الذين ذكّرتهم السّورة الكريمة، و الذين وجبت عليهم كلمة العذاب بسبب تكذيبهم رسل الله تعالى إليهم. إنّ الله تعالى سبق أن أهلك قوم نوح عليه السّلام. وأصحاب الرّس، وثمود قوم صالح عليه السّلام، وعاداً قوم هود عليه السّلام، وفرعون مصر الطّاغية الباغية، وإخوان لوط عليه السّلام الذين كانوا يأتون الرّجال شهوةً من دون النّساء، وأصحاب الأيكة والشّجر الملتفّ قوم شعيب عليه السّلام، وقوم تبع الملك اليمانيّ المسلم الذي دعا قومه إلى الإسلام. إنّ كلّ هؤلاء الأقوام كذبوا رسل الله تعالى إليهم فأخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر. إنّ على كفّار مكّة أن يتعضّوا بما حلّ بالمكذّبين السّابقين، وأن يستدلّوا بالخلق الأوّل على قدرة الله تعالى على الخلق الآخر. إنّ الله سبحانه وتعالى لم يعي بالخلق الأوّل ولم يعجز، فكيف يُوقِعُ كفّار مكّة أنفسهم في شكّ من خلق جديد، وهم يعلمون أنّ إعادتهم للعمل مرّةً أخرى أسهل من عملهم له ابتداءً، علماً بأنّ الله تعالى يستوي في حقّه العملان، الابتداء والإعادة. وهكذا يتبيّن عناية السّورة الكريمة الكبرى بالبعث بعد الموت.

(٣)

" للكافرين عذابٌ شديدٌ في نار جهنم التي تطلب المزيد،

وللمتقين ما يشاؤون من نعيمٍ في الجنة التي لهم فيها مزيد "

الآيات (١٦ - ٣٥)

تُعني آيات هذا القسم بالإنسان الذي خلقه الله تعالى وأحاط به علماً وقدرةً؛ حتى دخل الكافرون النار وخلدوا فيها، ولقد خلقنا الإنسان الجنس ونعلم ما توسوس به نفسه، ويُخفي صدره، وينوي ضميره، ونحن أقرب إليه من الوريدين في عنقه اللذين يوصلان الدم الأزرق إلى القلب، و أشدَّ إحاطةً بذلك القلب وأملك له. إنا أقرب إلى الإنسان من جبل الوريد حين يتلقى الملكان الكاتبان القاعد أحدهما ذات اليمين ويكتب الحسنات، والقاعد آخرهما ذات الشمال ويكتب السيئات. ما يلفظ الإنسان من قولٍ حسنٍ أو سيئٍ إلاّ لديه ملكٌ رقيبٌ حاضرٌ يكتب كلَّ حسنةٍ أو سيئةٍ من الأقوال، ومن باب الأحرى الأفعال. وجاءت سكرة الموت بالحقّ من أمر الآخرة وشدّته. ذلك الموت الذي كنت منه تحيد وتميل. ونفخ إسرافيل عليه السلام بإذن الله تعالى في البوق النَّفخة الثانية. ذلك يوم الوعيد للكفار المنكرين للبعث. وجاءت كلُّ نفسٍ معها سائق من الملائكة يسوقها إلى الله تعالى، وآخر يشهد عليها بما عملت. لقد كنت في غفلةٍ من هذا الموقف العصيب والمشهد المهيّب، فكشفنا عنك الغشاوة التي كانت في الدنيا على عينيك، فبصرك اليوم قويٌّ وحادّ. وقال قرينه من الملائكة الموكل بعمله والذي يشهد عليه يوم القيامة بما عمل : هذا ابن آدم الذي وكلّني به لديّ الآن حاضر، فيقال للملكين، السائق والشهيد : ألقيا في جهنم كلَّ شديد الكفر بالله تعالى،

مَناع للخير، معتد على الآخرين قولاً وفعلاً، شاكِّ في وحدانية الله تعالى وفي قدرته على ما يشاء. الذي جعل مع الله تعالى إلهاً آخر واركب الذنب الذي لا يغفر الله تعالى وهو الشرك فألقياه في العذاب الشديد في جهنم. قال شيطانه الذي قبضه الله تعالى له في الدنيا وسلطه عليه : ربنا لست أنا الذي جعلته طاغياً ولكن كان هو أصلاً في ضلالٍ بعيد، وبعد عن الحق أكيد. قال الله تعالى : لا تختصموا اليوم لديّ وقد قدّمت إليكم في الدنيا بالوعيد : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ .

ما يبدل القول اليوم لديّ وما أنا بظلامٍ للبعيد بحذف حسنة أو إضافة سيئة. يوم القيامة نقول لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد، فلا يزال لديّ متسع، حتى يضع الحقّ جلّ وعلا فيها قدمه : فتقول : حسبي حسبي ، قد امتلأت.

وقرّبت الجنة للمتقين مكاناً غير بعيد. هذا ما توعدون من ثوابٍ جزيلٍ لكلّ راجع إلى الله تعالى بعمل الطّاعات حفيظٍ لحقّ الله تعالى عليه، من خشى الرحمن بالغيب وبالمشاهد من قدرته عزّ وجلّ، وجاء بقلبٍ راجعٍ ممّا يكرهه الله تعالى إلى ما يحبّه ويرضاه. ويقول للمتقين : ادخلوا جنّات النّعيم بسلامٍ من جميع الآفات والأذى والقذى. ذلك يوم الخلود في جنّات النّعيم. للمتقين ما يشاؤون فيها ويشتهون، ولدي الله تعالى مزيدٌ لهم، وهو رؤية ربّهم جلّ وعلا كما يرون القمر ليلة البدر، وكما يرون الشّمس ليس دونها سحاب^(١).

(١) تفسير الطّبري ٧ / ٢٠٠

(٤)

" على الكافرين الاتعاض بهلاك الكافرين السابقين،

والاستدلال بخلق السماوات و الأرض على البعث، وعلى

المؤمنين الاستعداد ليوم القيامة، والاتعاض بالقرآن الكريم "

الآيات (٣٦ - ٤٥)

عقد هذا القسم الأخير في السورة الكريمة ينتظم حبات من الدروس المستفادة من المعاني التي عرضت لها السورة الكريمة من قبل، إضافة إلى الجديد من الدروس المفيد. وكل هذه الدروس تخدم المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة، وهو البعث بعد الموت. ما أكثر الأمم الكافرة التي أهلكتها الله تعالى قبل كفار مكة. لقد كانوا أشد من كفار مكة بطشاً، وفتحوا البلاد، ودوخوا العباد، وأهلكوا الحرث والتسل وحينما حقت عليهم كلمة العذاب لم يجدوا لهم ملجأ ولا مهرباً. إن فيما حدث للكافرين السابقين لعظة لمن كان له عقل، وأصغى بكلتا أذنيه لما يسمع، فوعى ما يقال له، وكان حاضر القلب ذكياً ألمعياً، لا تفوته الحكمة، ولا تغيب عنه العبرة. إن على كفار مكة أن يعتبروا، وإن عليهم أن يستدلوا بالخلق الأول على الخلق الآخر. لقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من تعب ولا نصب.

فاصبر يا محمد على ما يقول المفترون على الله الكذب، من اليهود وغيرهم من الضالين الذين يزعمون أننا استرحنا في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس في صلاة الصبح، وقبل غروب الشمس في صلاة العصر، ومن الليل فسبح بحمد ربك في صلاتي المغرب والعشاء، وأدبار السجود في الركعتين

بعد صلاة المغرب. واستمع يا محمد ويا أيها الإنسان! يوم ينادي المنادي إسرائيل عليه السلام من مكان قريب يسمعه الخلائق أجمعون. يوم يسمعون الصيحة الثانية بالحق، ذلك يوم الخروج من القبور للحساب والجزاء. إنا نحن نحجي ابتداءً، ونميت، وإينا المصير يوم القيامة والرجوع. يوم تتشقق الأرض عنهم مسرعين في الخروج متجهين صوب النداء. ذلك جمع علينا سير، وحشر للخلائق سهل. نحن أعلم بما يقول كفار مكة من تكذيب لك يا محمد وللقرآن الكريم، وإنكار للبعث، وما أنت عليهم يا محمد بجبار تجبرهم على الإيمان؛ ولكن عليك البلاغ فقط. فذكر يا محمد بالقرآن المجيد من يخاف وعيدي من المؤمنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وهكذا يكون الحديث في نهاية السورة الكريمة عن القرآن الكريم والرسول العظيم صلى الله عليه وسلم مستفيضاً. وهكذا يتأكد أن البعث بعد الموت هو المحور الذي تدور حوله سورة "ق" المكيّة الكريمة التي تتحدّث في أسس العقيدة .

التفسير

(١)

" كَفَّار مَكَّةَ الْمُتَكْرِمِينَ لِتُبْعَثَ فِي حَالٍ مُضْطَّرِبٍ بِشَأْنِ

الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالرَّسُولِ الْعَظِيمِ ﷺ "

الآيَات (١ - ٥)

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَمْ دَامْتَنَا وَكُنَّا نُرَابًا ذٰلِكَ رَجَعُ بِعِيدٍ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْاَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتٰبٌ حٰفِیْظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِيْ اَمْرٍ مَّرِیْحٍ ﴿٥﴾

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾

والقرآن المجيد : والقرآن الكريم^(١) المتضمن للكثير من المكارم الدنيوية والأخروية^(٢)، وجواب القسم محذوف تقديره : ما آمن كفار مكة بمحمد ﷺ^(٣).
تبدأ السورة الكريمة بالحرف : "ق" الذي سميت به. ومن العلماء من قال في تفسيره : الله أعلم بمراده. ومنهم من اجتهد. ومن أرجح الآراء أن الحروف المقطعة في أوائل السور امتداداً للتحدي بالقرآن الكريم. إن كلمات القرآن الكريم تتألف من الحروف التي تتألف منها الكلمات على لسان العرب، ولكن القرآن الكريم نسيجٌ وَّحِدِه.

والقرآن الكريم المشتمل على الكثير من المكارم والأعجاز الدنيوية والأخروية، ما آمن كفار مكة بمحمد بن عبد الله ﷺ.
ويلاحظ أن السورة الكريمة التي تبدأ بالحروف المقطعة تنتصر للقرآن كغيرها من السور الكريمات التي تبدأ بهذه الحروف المقطعة. وكما تنتصر السورة الكريمة للقرآن الكريم على الفور، تنتصر له على التراخي.

(١) تفسير الطبري ٢٦ / ٩٣

(٢) انظر مفردات الراغب الأصفهاني: "مجد" ٢ / ٥٩٨

(٣) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢ / ١٠٩ و الجالين

بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿١﴾ أَمْ دَامَتْنَا وَكُنَّا نَرَابًا
ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٢﴾ .

بل عجبوا : العجب والتعجب حالة تُعْرَضُ للإنسان عند الجهل بسبب الشئ (١) .
ما آمن كفّار مكة بمحمد ﷺ، بل عجبوا أن جاءهم فعلاً وُبعث فيهم منذر من
بني جنسهم ومن بلدتهم محذراً من لم يؤمن منهم بالبعث والحساب والجزاء ولم يعمل
ليوم القيامة فقال الكافرون : هذا البعث الذي يدعونا محمدٌ إلى الإيمان به، والعمل من
أجله، شيءٌ عجيب وأمرٌ غريب، لانجد له سبباً، ولا نعرف له موجباً.
أثنا متنا وفارقت أرواحنا أجسادنا، وصرنا عظاماً رميمات وتراباً قديماً، نرجع إلى
الحياة مرّةً أخرى ! ذلك البعث الذي يدعونا محمدٌ إلى الإيمان به والعمل من أجله؛
رجعٌ غاية في البعد عن الصواب لذا فنحن نرفضه جملةً وتفصيلاً.

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٣﴾

قد علمنا ما تنقص الأرض منهم : قد علمنا ما تأكل الأرض من أجسادهم بعد
مما هم (٢) .

وعندنا كتابٌ حفيظٌ : هو اللوح المحفوظ فيه جميع الأشياء المقدرة (٣) .

قد أحطنا علماً بما تأكل الأرض من أجسادهم بعد الموت، وإنا لقادرون على
إعادتها يوم القيامة إلى الحياة مرّةً أخرى، وإلى الحال التي كانت عليها. وعندنا كتابٌ

(١) مفردات الراغب الأصفهاني : " عجب " ٢ / ٤١٨

(٢) تفسير الطبري ٢٦ / ٩٤

(٣) تفسير الطبري ٢٦ / ٩٤

غاية في القدرة على حفظ كل ما صدر منهم من قولٍ أو فعل، وهو اللوح المحفوظ،
وإننا لحاسبوهم ومجازوهم يوم القيامة على كل شيء.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾

بل كذبوا بالحق : بالقرآن الكريم (١)

فهم في أمر مريج : فهم في أمر مختلط عليهم، ملتبس، لا يعرفون حقه من باطله (٢)
بل كذب كفار مكة بالقرآن الكريم لما جاءهم من الله تعالى على لسان حبيبه
محمد ﷺ، فهم في أمر القرآن الكريم وأمر محمد ﷺ في حال مختلط، ووضع مضطرب،
وأمر ملتبس، لا يفرون على قرار، ولا يستقرون على حال. إن القرآن الكريم ومحمداً
ﷺ عندهم مرة سحر وساحر، وأخرى شعر وشاعر، وثالثة كذب وكاذب، وهكذا:

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (١)

(١) سورة الكهف - الآية (٥) .

(٢)

" هَلَّا اسْتَدَلَّ كَفَّارٌ مَكَّةَ عَلَى الْبَيْتِ بِخَلْقِ اللَّهِ
تَعَالَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْأَكْبَرِ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ،
وَهَلَّا اتَّعَظُوا بِإِهْلَاكِ اللَّهِ تَعَالَى الْمَكْذِبِينَ
السَّابِقِينَ "

الآيات (٦ - ١٥)

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ﴿١﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٢﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٣﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٤﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿٥﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿٦﴾

وزيَّناها : بالنجوم (١)

وما لها من صدوع وفتوق (٢) وشقوق تعييبها (٣).

وألقينا فيها رواسي : وجعلنا فيها جبلاً ثوابت رست في الأرض (٤).

وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج : وأنبتنا في الأرض من كل نوع من نبات حسن (٥)

والبهجة حسن اللون وظهور السرور (٦).

تبصرة : فعلنا ذلك تبصرة لكم أيها الناس، نبصركم بها قدرة ربكم على ما

يشاء (٧).

وذكرى : وتذكيراً من الله عظمته وسلطانه وتنبهها على وحدانيته (٨).

منيب : رجّاع إلى طاعتنا (٩).

(١) تفسير الطبري ٢٦ / ٩٥

(٢) تفسير الطبري ٢٦ / ٩٥ و تفسير ابن كثير ٧ / ٣٧٤

(٣) الجلالين

(٤) تفسير الطبري ٢٦ / ٩٥

(٥) تفسير الطبري ٢٦ / ٩٥

(٦) مفردات الراغب الأصفهاني : " بهج " ١ / ٨٠

(٧) تفسير الطبري ٢٦ / ٩٥

(٨) تفسير الطبري ٢٦ / ٩٥

(٩) الجلالين

وحبّ الحصيد : الزّرع المحصود من البرّ والشّعير وسائر أنواع الحبوب^(١).

والنخل باسقات : طوالاً^(٢).

لها طلع : الطّلع غلافٌ يشبه اللّوز ينفّث عن حبّ منضود ، فيه مادّة إخصاب النّحلة^(٣).

نضيد : منضود بعضه على بعض متراكب^(٤) منسّق، ضمّ بعضه إلى بعض في اتّساق^(٥).

أعميت أبصار كفّار مكّة وبصائرهم فلم ينظروا إلى السّماء فوقهم كيف بنيناها بناءً محكماً، ورفعناها بدون عمّد، وزيناها بالنّجوم والكواكب، ومالها من صدوع تعيها ولا شقوق تشينها. والأرض بسطناها، وألقينا فيها جبلاً راسيةً كيلاً تضطرب الأرض وتميد، وأنبتنا فيها من كلّ أنواع التّبات التي ترتاح الأعين لألوانها الخلابّة، وتبتهج الأنفس بمناظرها الجميلة. فعلنا ذلك تبصرة لكم أيّها النّاس، نبصّركم بها شيئاً من القدرة المطلقة للذّات العليّة، وموعظة لكلّ عبدٍ رجّاعٍ إلى طاعة ربّه جلّ وعلا، وفعل ما يؤمر به. ونزلنا من السّماء ماءً مباركاً بقدر فأنبتنا به حدائق ذات بهجة للنّفس وسرور، وأنواع الحبوب المحصودة غذاءً لكم من قمحٍ وشعيرٍ وذرةٍ وما إلى ذلك. وأنبتنا النّخل طوالاً لها طلعٌ متراكبٌ حبّه، بعضه على بعض، في نظام بديع، واتّساقٍ لطيف. أنبتنا كلّ ذلك رزقاً منّا للعباد كي يقوموا بما يجب عليهم من شكر الله تعالى

(١) تفسير الطّبري ٢٦ / ٩٦

(٢) تفسير الطّبري ٢٦ / ٩٦

(٣) المعجم الوسيط : " طلع "

(٤) تفسير الطّبري ٢٦ / ٩٦

(٥) المعجم الوسيط : " نضد "

بإفراده بالعبادة، وأحيينا بالماء بلدةً كانت ميتةً بالجذب كي يستدلّ العباد بإحيائنا الأرض التي كانت ميتةً بالثبّت والزّرع على قدرتنا على إحيائهم مرّةً أخرى يوم القيامة. إنّ الحقّ جلّ وعلا كما أحيا الأرض الميتة بإخراج الزّرع منها يحيي العباد يوم القيامة، فيخرجون من القبور أحياء مرّةً أخرى كأنّهم جرادٌ منتشر.

إنّ على كفّار مكّة أن يستدلّوا بهذه المظاهر من القدرة المطلقة للذات العليّة، على قدرة الله تعالى على البعث والحساب والجزاء، والثواب والعقاب. إنّ عليهم أن يؤمنوا باليوم الآخر وأن يعملوا لما بعد الموت.

كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرّسّ وتمود^(١) وعاد وفرعون وإخوان لوط^(٢) وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرّسل فحقّ وعيد^(٣)

وأصحاب الرّسّ : هي بئر كانوا مقيمين عليها بمواشيهم يعبدون الأصنام^(١) وقيل هو واد^(٢).

وأصحاب الأيكة : هم قوم شعيب عليه السّلام^(٣).

والأيكة : الشجر الملتف^(٤).

وقوم تبع : هو ملكٌ كان باليمن أسلم ودعا قومه إلى الإسلام فكذبوه^(٥).

(١) الجالين

(٢) مفردات الرّاجب الأصفهاني : " رس " ١ / ٢٠٨

(٣) تفسير الطّبري ٢٦ / ٩٧

(٤) تفسير الطّبري ٢٦ / ٩٧

(٥) الجالين

إنّ على كفّار مكّة أن يتّعظوا بما حلّ بالكافرين السابقين أمثالهم من عقاب بسبب تكذيبهم رسل الله تعالى إليهم. لقد كذب قبل كفّار مكّة قوم نوح عليه السلام أوّل رسل الله تعالى إلى البشر، وكذب أصحاب الرّسّ، وهو اسم بئر أو واد، وكذبت ثمود قوم صالح عليه السلام، وعادّ قوم هود عليه السلام، وكذب فرعون مصر موسى عليه السلام، وكذب قوم لوط عليه السلام وأصروا على إتيان الذّكران بدل الزّوجات الطّاهرات، وكذب أصحاب الأيكة شعيباً عليه السلام، وكذب أصحاب قوم تبع باليمن ملكهم تبعاً الذي أسلم ودعاهم إلى الإسلام.

إنّ كلّ هؤلاء كذبوا رسل الله تعالى إليهم ومن دعاهم إلى الإسلام، وتوحيد الله تعالى، فوجب عقابهم ولزم عذابهم.

﴿ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

أفعيينا بالخلق الأوّل : الإعياء عجزٌ يلحق البدن^(١).

بل هم في لبسٍ من خلقٍ جديدٍ : ولكنّهم في شكٍّ من قدرتنا على أن نخلقهم خلقاً جديداً بعد فنائهم وبلائهم في قبورهم^(٢) وأصل اللبس ستر الشيء. يقال ذلك في المعاني، يقال : لبست عليه أمره^(٣) ويقال في المحسوسات ، وهو الأصل : لبس الثوب استتر به^(٤).

(١) مفردات الرّاعب الأصفهاني : " عبي " ٢ / ٤٦٢

(٢) تفسير الطّبري ٢٦ / ٩٨

(٣) مفردات الرّاعب الأصفهاني : " لبس " ٢ / ٥٧٦

(٤) مفردات الرّاعب الأصفهاني : " لبس " ٢ / ٥٧٦

أم أن كفار مكة ينكرون قدرتنا على إعادة الخلق يوم القيامة لأننا عجزنا عن الخلق ابتداءً! إنا لم نعجز عن الخلق ابتداءً، وإن كفار مكة يعرفون ذلك ويعترفون به. إن كفار مكة في لبس من قدرتنا على الخلق الجديد يوم القيامة، وفي شك من تلك القدرة لأنهم لم يستعملوا عقولهم استعمالاً صحيحاً. إنهم لو استعملوا عقولهم استعمالاً صحيحاً لانتهوا إلى أن إعادة العمل أهون من ابتداعه ابتداءً، ولانتهوا إلى أن الله تعالى الذي بدأ أول خلقٍ قادرٌ على أن يعيده، علماً بأن البدء والإعادة سواء في حق الذات العلية وقد قال تعالى^(١): ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّاعِلِينَ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

(١) سورة الأنبياء ١٠٤